بيان مذهب أهل الضلال الذين أنكروا النبوات [١]

يقول ابن القيم - رحمه الله - :

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه، إنما جاء بتعريف الرب تعالى بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، والتعريف بحقوقه على عباده، فمن أنكر رسالاته، فقد أنكر الرب الذي دعا إليه، وحقوقه التي أمر بها؛ بل نقول لا يمكن الاعتراف بالحقائق على ما هي عليه مع تكذيب رسوله ﷺ، وهذا ظاهر جداً لمن تأمل مقالات أهل الأرض، وأديانهم.

فإن «الفلاسفة» لم يمكنهم الاعتراف بالملائكة،

(١) «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» لابن القيم (ص٣٤١) تحقيق أحمد سالم المصري.

obeikandl.com

والجن، والمبدأ، والمعاد وتفاصيلهما، وتفاصيل صفات الرب تعالى، وأفعاله مع إنكار النبوات؛ بل والحقائق المشاهدة، التي لا يمكن إنكارها، لم يثبتوها على ما هي عليه، ولا أثبتوا حقيقة واحدة على ما هي عليه البتة، وهذا ثمرة إنكارهم النبوات، فسلبهم الله إدراك الحقائق التي زعموا أن عقولهم كافية في إدراكها، فلم يُدركوا منها شيئًا على ما هو عليه، حتى ولا الماء، ولا الهواء، ولا الشمس، ولا غيرها.

فمن تأمل مذاهبهم فيها علم أنهم لم يدركوها، وإن عرفوا من ذلك بعض ما خفي على غيرهم.

وأما «المجوس» فأضلّ، وأضلّ.

وأما «عباد الأصنام» فلا عرفوا الخالق، ولا عرفوا حقيقة المخلوقات، ولا ميّزوا بين الشياطين، والملائكة، ولا بين الأرواح الطيبة، والخبيثة، وبين أحسن الحسن،

وأقبح القبيح، ولا عرفوا كمال النفس، وما تسعد به، ونقصها، وما تشقى به.

وأما «النصارى» فقد عرفت ما الذي أدركوه من معبودهم، وما وصفوه به، وما الذي قالوه في نبيهم، وكيف لم يُدركوا حقيقته البتة، ووصفوا الله بما هو من أعظم العيوب والنقائص، ووصفوا عبده ورسوله، بما ليس له بوجه من الوجوه.

ولا عرفوا الله، ولا رسوله، والمعاد الذي أقروا به لم يدركوا حقيقته، ولم يؤمنوا بما جاءت به الرسل من حقيقته؛ إذْ لا أكل عندهم في الجنة، ولا شرب، ولا زوجة هناك، ولا حور عين، يلذ بهن الرجال، فلذاتهم في الدنيا، ولا عرفوا حقيقة أنفسهم، وما تسعد به، وتشقى، ومن لم يعرف ذلك، فهو أجدر أن لا يعرف حقيقة شيء كما ينبغي البتة، فلا لأنفسهم عرفوا، ولا لفاطرها، وبارئها، ولا لمن جعله إليه سببًا في فلاحها،

وسعادتها، ولا للموجودات، وأنها جميعها فقيرة، مربوبة، مصنوعة، ناطقها، وصامتها، آدميها، وجنيّها، وملكها، فكل من في السماوات والأرض عبده، وملكه، وهو مخلوق، مصنوع، مربوب، فقير، من كل وجه، ومن لم يعرف هذا، لم يعرف شيئًا.

وأما «اليهود» فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم، وغباوتهم، وضلالهم، ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل، التي بعضها فوق بعض، ويكفي في ذلك عبادتهم العجل، الذي صنعته أيديهم من ذهب، ومن غباوتهم وبلادتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان، وأقله فطانة، الذي يُضرب المثل به في قلة الفهم.

فانظر إلى هذه الجهالة، والغباوة المجاوزة للحد، كيف عبدوا مع الله إلهًا آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد، وعظمة الرب، وجلاله، ما يُشاهده سواهم؟!.

وإذْ قد عزموا أن اتخاذ إله دون الله، فاتخذوه

ونبيهم حي بين أظهرهم، ولم ينتظروا موته!، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الملائكة المقربين، ولا من الأحياء الناطقين، بل اتخذوه من الجمادات!.

وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر العلوية كالشمس، والقمر، والنجوم، بل هو من الجواهر الأرضية!، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر، التي خُلقت فوق الأرض عالية عليها كالجبال، ونحوها، بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض، والصخور، والأحجار، عالية عليها!.

وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه جوهر، يستغني عن الصنعة، وإدخاله النار، وتقليبه وجوهًا مختلفة، وضربه بالحديد، وسبكه بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له ضروب مختلفة، وإدخاله النار، وإحراقه، واستخراج خبثه!.

وإذ قد فعلوا، فلم يصوغوه على تمثال مَلَك كريم،

ولا نبي مرسل، ولا على تمثال جوهر علوي، لا تناله الأيدي، بل على تمثال حيوان أرضي!.

وإذْ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات، وأقواها، وأشدها، امتناعًا من الضيم، كالأسد، والفيل، ونحوهما، بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان، وأقبله للضيم، والذل، بحيث تُحرث عليه الأرض، ويُسقى عليه بالسواقي، والدواليب، ولا له قوة يمتنع بها، من كبير ولا صغير.

فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم، ونبيهم، وحقائق الموجودات؟ وحقيق بمن سأل نبيه أن يجعل له إلهًا، فيعبد أصنامًا إلهًا مجعولاً بعد ما شاهد تلك الآيات الباهرات، أن لا يعرف حقيقة الإله ، ولا أسماءه، ولا صفاته، ونعوته، ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق، وحاجته، وفقره.

ولو عرف هؤلاء معبودهم، ورسوله؛ لما قالوا لنبيهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥)، ولا قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ (المائدة ٢٤)، ولا قتلوا نفسًا، وطرحوا المقتول على أبواب البرآء من قتله، ونبيهم حيّ بين أظهرهم، وخبر السماء، والوحي يأتيه صباحًا ومساءًا، فكأنهم جوزوا أن يخفى هذا على الله، كما يخفى على الناس؟!.

ولو عرفوا معبودهم، لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: «يا أبانا انتبه من رقدتك، لا تنام».

ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أسيائه، وقتلهم، وحبسهم، ونفيهم، ولما تحيلوا على تحليل محارمه، وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل، ولقد شهدت التوراة بعدم فطانتهم، وأنهم من الأغبياء، ولو عرفوه لما حجروا عليه بعقولهم الفاسدة، أن يأمر بالشيء في وقت لمصلحة، ثم يزيل الأمر به في وقت آخر؛ لحصول

المصلحة، ويبدله بما هو خير منه، وينهى عنه، ثم يبيحه في وقت آخر؛ لاختلاف الأوقات، والأحوال في المصالح والمفاسد.

كما هو مُشاهد في أحكامه القدرية الكونية، التي لا يتم نظام العالم، ولا مصلحته إلاّ بتبدلها، واختلافها، بحسب الأحوال والأوقات، والأماكن، فلو اعتمد طبيب أن لا يُغير الأدوية، والأغذية، بحسب اختلاف الزمان، والأماكن، والأحوال، لأهلك الحرث والنسل، وعُدّ من الجهال، فكيف يحجر على طبيب القلوب، والأديان أن تتبدل أحكامه، بحسب اختلاف المصالح، وهل ذلك إلاّ قدح في حكمته، ورحمته، وقدرته، وملكه التام، وتدبيره لخلقه...».

فهرس

المقدمة ٥
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٩
الرد على ما جاء في الرسالة القبرصية من دعاوى ٢١
الدعوى الأولى (أن الرسول ﷺ لم يبعث إلى النصارى) والرد عليها ٢٢
الدعوى الثانية (أن محمداً ﷺ أثنى على دينهم) والرد عليها ٢٦
الدعوى الثالثة (أن كتب الأنبياء المتقدمين تشهد لما عليه دينهم) والرد عليها ٢٨
الدعوى الرابعة (أن ما هم عليه ثابت بالعقل والشرع) والرد عليها ٣٢
الدعوى الخامسة (أنهم موحدون) والرد عليها ٣٩

obeikandl.com